التأليف النصي وسوسيلوجية الاتصال العلمي في الحضارة العربية الإسلامية

أ.م. قاسم لعيبي موسى
كلية الهندسة / الجامعة المستنصرية
Kasim – la@yahoo.com

مستخلص البحث:
يمثل النص المحوري ظاهرة هامة في محور التأليف العربي، وهو مركز الثقل في هذه الدراسة، وتهدف إلى معرفة أهم أشكال العلاقات بين النصوص.
فالنصوص القوية التي تجذب إلى التأليف حولها تكون نصوص تابعة هي في الأصل أعمال شديدة البأس، فقد استوعبت ما قبلها من مؤلفات سواء شرحاً أو تلخيصاً أو تهذيباً، فكلما ازدادت أهمية النص ازدادت معه تفاسيره والإعمال المبنية عليه، فالمحورية والتمركز لنص أصلي يصبح بذلك مركزاً تدور حوله مؤلفات جديدة، تضاف فيه قيم جديدة إلى قيم قديمة، وهذه النصوص تتميز بخصوبة فائقة الجاذبية.

الكلمات المفتاحية: النص الأصلي - التأليف – التأليف النصي – علاقة النصوص .

المقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد (ص) أما بعد:

يعدّ تدوين القرآن الكريم من أهم ظواهر المعلومات في التاريخ العربي والإنساني حيث لم يكن العرب يعرفون التدوين من قبل، بل كانوا يعتمدون بذلك على الحفظ والرواية الشفهية، ونادراً ما نجد تدوين بعض القصائد أو حتى الأمثال قبل ظهور الإسلام، فقد أقبل المسلمون الأوائل على كتاب الله، وسُنّة نبيهم يستذكرونها حفظاً، ويستنبطون منهما أحكام الدين الحنيف، ومنذُ منتصف القرن الأول الهجري تطورت ظاهرة التدوين، وبدأ المسلمون يُسجّلون علومهم ويدونوها في الكتب والمؤلفات وخاصة بعد الانتهاء من تدوين القرآن الكريم، حيث بدأت كتابة السير والمغازي، وتدوين الروايات حول الملوك العرب والعجم. لكن يعدّ نص القرآن الكريم هو المحور الذي دارت حوله جميع علوم المسلمين يستنبطون من العلوم المتنوعة، وقاموا يؤلفون حوله التأليف التي تعين المسلم على فهمه، فقد ظهرت نصوص مؤلفة في علوم مختلفة مثل علم القراءات، علم التفسير، أسباب النزول وكذلك الملكي والمدني وسائر علوم القرآن الكريم التي أوصلها السيوطي إلى مائة علم، في كتابه "التحبير في علم التفسير". وفي علوم الحديث نجد هناك مجال من الارتباط الجوهري بين أشكال وعلاقات التأليف النصي وبين طبيعة واحتياجات وشروط هذا العلم وبين الشكل أيضا مرتبطا بالمحتوى الذي يسعى النص إلى توصيله، وهو يتأثر بالمحتوى بقدر ما يؤثر فيه، فالتلخيص والشرح والاستدراك والتذيل وغيرها، لا يمكن أن تنفصل عن التأثر والتأثير في المحتوى. ولعل أوضح ما نجده بهذه العلاقات التأليف النصي التي خدمت علم الحديث كالأطراف، والمستفيدات، والمستخرجات، والوحدانيات، والثنائيات، وإدماج بعض النصوص وإعادة الترتيب والتلخيصات التي انتشرت على نطاق واسع في مجال عبقرية التأليف العربي، وفي مجال اللغة حيث يتفق العلماء أن أول كتاب ظهر شامل في النحو هو كتاب سيبويه (ت 180هـ) ومعه تزامن ظهور المختصرات. وقد قدم التأليف النصي في مجال التاريخ والتراجم دوراً مبدعاً ومتقناً في تواصل النصوص على طريق المختصرات والتذييلات والنمذجات والتي استثمرت بها تراجم القرون التي شكلت سلسلة من الحلقات، مما جعل تلك القرون العربية والإسلامية متصلة رغم كل عوامل

الدمار والتفكك والتلف. وفي هذه الورقة البحثية نؤكد حول سوسيولوجية الاتصال العلمي في الحضارة العربية – الإسلامية، فعلى سبيل المثال نجد وظيفة الحفظ تتحقق في أشكال المختصرات والمنظومات، ووظيفة متابعة التغطية في الذيول والصلات، والتصحيح وتكملة النقص في الاستدراك، والفهم في الشروح والحواشي والتعليقات، والسيطرة على النص في التهذيب، والجدل والمناقشة والمعارك الفكرية في الردود والمحاكمات، ومفاتيح الاسترجاع من النصوص في الأطراف والكشافات، وتنمية واستثمار النصوص في البناء على النص. وكانت المؤلفات تتصارع على الأصل وفروعه وفروع الفروع، حتى أحياناً تصل إلى الرتبة الرابعة من التفارع والتشجير لتتحقق وظائف التكامل والتواصل والتصحيح والتركيم.

المبحث الأول : التأليف النصي

يمثل التأليف النصي ظاهرة مهمة في محور التأليف العربي القديم، ونستطيع القول هو مركز الثقل في هذه الدراسة، والتي تهدف إلى معرفة أهم أشكال العلاقات بين النصوص. لكن في مجال التأليف النصي، يمكن أن يتخذ النص السابق كوسط ينمو منه، أو يمكن أن يبني عليه نص جديد، فالمتن الجديد قد نشأ أساساً وسط هذه البيئة، والمعلومات الأخرى التي يحتاجها النص تستكمل من مصادر مساعدة، وهذا يعتمد بالتأكيد على خبرة المؤلف القائم يعمل الشرح أو التلخيص أو الاستدراك أو التذيل .... والحقيقة تتعمد بالأساس على نص ربما سابق يرتكز التأليف عليه لإخراج نص جديد أو يكمله أو ينقده، ومن خلال هذه العلاقات بين النصوص الأصلية والنصوص المتعلقة بها، نستطيع أن نميز بين عدة أشكال من هذه العلاقات هي:

1. التأليف المرتبط
2. التأليف النصي المستخدم للنص الأصلي
3. التأليف التابع

يلاحظ أن النص الذي تشتغل من بعده نصوص وتكون ذات علاقة معه فهو قد يتوافر له من الثراء والمقومات ما يجعله نواة لنصوص أخرى تنبت في تربته، وتتفرع عنه عدة تفرعات وأول هذه الفروع هو "تفسير النص" وهكذا يمكن القول كلما زادت أهمية النص ازدادت الأعمال والتفاسير المبنية عليه. فالنص يمثل شيئاً مهماً وجذرياً في حياة الإنسان، لذلك مهما نشهد من تغير في المعلومات، ينبغي إلا نفرط في ادراك قيمة النصوص وتأتي هذه القيمة من خلال ظاهرة التأليف النصي التي تنبهنا إلى مسألة مهمة في المكانة الاجتماعية المكتسبة وعلاقاته، حيث تبدو أهمية النص نابعة من مكانة وأهمية مؤلفه، ففي المؤلفات العربية قد نجد أحياناً الإشارة إلى اسم المؤلف وليس إلى عنوان الكتاب.

أولاً: تعريف التأليف

بدأت ظاهرة التأليف العربية تخرج إلى حيز الوجود مع النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وبعد الانتهاء من تدوين القرآن الكريم وتطور ظاهرة التدوين، بدأت كتابة السير والمغازي، أما بالنسبة للحديث النبوي الشريف فقد حظى بخصوصية في التدوين، ويذكر أبن النديم أن زياد بن أبيه (ت 53هـ) أول من ألف كتاباً في المثالب، "فإنه لما ظفر عليه وعلى نسبهُ عمل ذلك ودفعه إلى ولده وقال: استظهروا به على العرب بانهم يكفون عنكم".[1] وقبل أن ينقضي القرن الأول الهجري وضع نصر بن عاصم الليثي النحوي (ت

[1] ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست / تحقيق جوستاف فلوجل – ليبتزج 1871 – 2مج، ص 131-132.

89هـ) كتاباً في العربية كما يذكر ذلك ياقوت الحموي [1] .يبدو أن تأليف الكتب في هذه الفترة قد كثرت حتى لدرجة أن خلفاء بني أمية جعلوها في خزائن خاصة بها.

- تعريف التأليف لغة واصطلاحاً

من حيث اللغة فقد ذكر الجوهري – التأليف هو جمع الشيء إلى نظيره تقول: ألفت بين الشيئين تأليفاً متآلفاً وأتلفا.[2] أما الفيروز أبادي يقول: تألف القوم وائتلفوا أي اجتمعوا.[3] وفي لسان العرب يقول ابن منظور: التأليف من الفتُ الشيء إذا وصلتُ بعضه ببعض، ومنه تأليف الكتب.[4]

واصطلاحاً: جمع مسائل علم في كتاب.[5] ويعرف الجرجاني صاحب كتاب "التعريفات". التأليف بانه جعل الأشياء الكثيرة بحيث يطلق عليهما اسم الواحد.[6] لكن حاجي خليفة (ت 1067 هـ) ميز بين التأليف والتصنيف بشكل مقتضب، حيث قال التصنيف هو جعل الشيء أصنافاً مميزة، أما التأليف فهو إيقاع الألفة بين الكلام مع التمييز بين الأنواع.[7] ومن خلال التعريف نستطيع القول أن جمع الحديث النبوي الشريف في كتب الاحاديث الجوامع أو السنن، أو حتى كتب المعاجم وجمع اللغة فيها تصنيفاً، وقد أطلق على من يجمعها "مضف" الكتاب وليس مؤلفه. والمنصف بهذه الحالة هو قد جمع المتشابه، كما قام بترتيب من العام إلى الخاص، فهو يعمل ويرتب ويصنف ويحلل ويبوب المعاني والألفاظ التي في الحقيقة هي ليست من أبداعه أو ابتكاره. لكن هي موجودة أصلاً في نصوص ومفردات سابقة عليه، قام بخدمتها وتصنيفها. كذلك في تحقيق المخطوطات أو ترجمة النصوص الأجنبية لا يسمى تأليفاً، لان الفكرة الأصلية والإضافة الحقيقية هي المؤلف النص الأصلي الذي كتب الفكرة أول مرة وليست لمحقق المخطوط أو للمترجم.

أما التهاوني فيرى أن التأليف: هو إيقاع الإلف بين شيئين أو اكثر، وعُرفاً مرادف التركيب، وهو جعل الأشياء بحيث يطلق عليه اسم الواحد، وقد يُقال التأليف جمع أشياء متناسبة ويشعُر به اشتقاقه من الألفة، فهو أخص من التركيب.[8] أما أستاذنا العالم كمال عرفان صاحب كتاب عبقرية التأليف العربي فله وجهة نظر أخرى فيقول "ظاهرة أتصال، واستجابة لحاجات علمية، وتعليمية، وثقافية، ومن أجل ذلك ظهرت آليات، وأصول في صنعة التأليف العربي والإسلامي".[9] من خلال المقدمة السابقة نستطيع القول أن هناك أركان أساسية للتأليف وهي:

---

[1] ياقوت الحموي: معجم الادباء، 224/19.

[2] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد الغفور – دار الكتاب العربي، 1377هـ، ص1332.

[3] الفيروز أبادي: القاموس المحيط، المكتبة التجارية، القاهرة، ط5، 1954م. 118/3

[4] ابن منظور جمال الدين محمد مكرم المصري: لسان العرب – بيروت، دار صادر، 1968م. م.ج (مادة الف)

[5] بطرس البستاني: محيط المحيط، بيروت، مكتبة لبنان، 1977م. ص14.

[6] الجرجاني، علي بن محمد بن علي: التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، 1983م، ص50.

[7] حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف الدين، إسطنبول، وكالة المعارف، 1941م. المقدمة – 35/1.

[8] التهانوي، محمد علي الفاروقي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، 1977م. 376/1.

[9] كمال عرفات نبهان: عبقرية التأليف العربي، منشورات مركز دراسات المعلومات والنصوص العربية، ط1، 2007م، ص6.

1. المؤلِف: وهو الشخص الذي يقوم بالبناء أو يصنع "مؤلَّف الكتاب" وينتجه للمستفيدين.
2. المؤلَّف: (نص الكتاب) - أو المتن – وهو يمثلُ إنتاج المؤلِّف.
3. منهج المؤلف: هو الخطة أو الطريقة التي يعدها المؤلف كي يسلكها لإنتاج كتابه.
4. أدوات المؤلف: هي المستلزمات من الوسائل والمصادر التي يستعين بها "المؤلف" في إنتاج مادته (الكتاب).

وإذا تتبعنا مراحل التأليف منذ نشأة الثقافة العربية – الإسلامية المكتوبة فيمكن أن نرصد أهم تلك المراحل:

1. بداية الإسلام – المرحلة الشفهية (الرواية والحفظ والسماع) حفظ القرآن الكريم فور نزوله (حفظه على صدور الرجال). رواهُ الشعر.
2. مرحلة التدوين – تدوين القرآن الكريم – تدوين الحديث النبوي الشريف – تدوين السير والفقه
3. مرحلة التصنيف – تصنيف النصوص المدونة والروايات وهي:

1. تصنيف حسب الأسماء لرواة الحديث من الصحابة مثل مسند احمد بن خليل، أو الترتيب الزمني
2. تصنيف حسب الموضوع أو الترتيب الهجائي: أو الطبقي في الحديث والفقه والتفسير والتراجم والكتب وغيرها
3. مصنفات علمية لتكملة النصوص مثل الذيول والمستدركات
4. خدمات تشغل النص بالشرح والتعليق والمناقشة والتلخيص.
5. التأليف العلمي والتأريخي والجغرافي والنقد في اللغة والعروض والفلسفة والتأريخ.

خلاصة القول عن تطور مراحل التأليف أنه كان طبيعياً أن يبدأ التأليف في الحديث النبوي الشريف والمغازي والتفسير، نستطيع القول أنها كانت قبل غيرها من العلوم الإسلامية لأنها تخدم النص القرآني وتساعد المستفيدين على فهمه وتقريبه إلى الأذهان، وبعد ذلك إذ نظرنا فنرى مغازي رسولنا الكريم (ص) وقد جمعها وهب بن منبه ومحمد بن اسحق.[1] أما الاحاديث النبوية الشريفة فجمعها ابن شهاب الزهري في مطلع القرن الثاني الهجري، ثم بعد ذلك ظهرت المسانيد.[2]

- التأليف النصي المحوري

يعتمد في الغالب التأليف النصي المحوري على "نص محدد" وهو يعتبر محوراً للتأليف، فيقوم النص الجديد أساساً على نص سابق وهذا يكون أما بالإفادة منه أو خدمته من خلال أشكال جديدة فتكون بالتخليص أو الاستدراك أو الشرح أو التذيل .... الخ وهذا ما يسمى بالتعامل الرأسي مع نص معين.[3] وأهم خاصية في هذا النوع من التأليف هي التمحور على مؤلفات نص أصلي، حيث تكون في البداية تدور للنص الأصلي، وفيما بعد لا يلبث أن يصبح تمركزهُ محورياً تدور حوله مؤلفات جديدة، في مستويات متعددة من التفارع.

يمكن أن يقسم التأليف من حيث مصادره إلى:

---

[1] كشف الظنون: 1747/2.

[2] أولها سند الربيع بن حبيب الاباضي، (ت170هـ) ثم سند ابي داود البصري (ت 203 هـ).

[3] كمال عرفات، مرجع سابق، ص16.

أولاً: التأليف الإبداعي:

وهذا النوع من التأليف لا يلتزم المؤلف بالإشارة إلى مصادر معلوماته أو أفكاره فيكون حر ينطلق معبراً عن نفسه بغير ارتباط بمنهج أو وثائق معينة تلزمه بتوثيق مصادر أقواله مثل القصة، والشعر وأنواع أخرى.لكن في الحقيقية المؤلف لا يمكن أن يستغني عن القراءة، وقد يحتاج إلى قراءات مطولة لنوعية محددة من الكتب لضبط وقائع ودراسة حالات معينة تأريخية أو غيرها تمهيداً للتأليف الإبداعي فيها.

ثانياً: التأليف الوثائقي:

يعتمد هذا النوع من التأليف على مصادر الأفكار والمعلومات، ومن أهم أشكال الاتصال هي الاتصال القرائي بالمصادر والمراجع، وهذا النوع من الاتصال تعتمد على كل أشكال الوثائق التي تحتوي على خبرة الإنسان المسجلة وتوثيقها.

وفي التأليف النصي المحوري قد لا يعتمد التأليف على نص واحد وإنما على نصين أو أكثر، سواء كان من خلال التلخيص أو الإدماج أو المقارنة وفي هذه الحالة لا يمكن أن نجد أختلاف بين الاعتماد على نص واحد أو أكثر من ذلك، فهو لا يزال تأليفاً نصياً يتعامل مع النصوص الأصلية وتحكمه علاقة محورية بهذه النصوص.

لكن النصوص القوية التي تجذب إلى التأليف حولها فتكون نصوص تابعة هي في الأصل أعمال شديدة البأس، فقد أستوعبت ما قبلها في مؤلفات من اختصاصها سواء شرحاً أو تلخيصاً أو اقتباساً. فهي بذلك تكتسب قوة سيطرة على قطاع واسع من المستقبل كما تحاول الأعمال التالية الانتساب اليهما بالإشارة أو بالاسم ... الخ

فقد اشتهرت كتب الفيلسوف ابن رشد بين التأليف والتلخيص فيذكر عبد الكريم اليافي في كتابه "مكانة ابن رشد" أن كتبه تألفت تلخيصاته القيمة كتب أرسطو المترجمة وشروحه ومناقشاته وعروضه لهذه الكتب، إلى غير ذلك من إنتاجه العلمي الأصيل الذي ألفه في مجالات مختلفة.[1]وقد ألف أبن منظور لسان العرب حيث جمع فيه أو بين التهذيب والمحكم والصحاح وحواشيه والجمهرة والنهاية.[2] ومن أبرز العلماء الذين اشتهروا في الانشغال بمؤلفات السابقين، واعتبرت نصوصاً محورية لمعجم الذهبي (ت 748) وأبن منظور (ت 711).[3]

نجد في بعض الأحيان المؤلف يخرج النص في أكثر من مستوى، ويتدرج من مستوى إلى مستوى معين ما يقل أو يزيد عنه، ويشمل التدرج قد يكون في مستويين أو أكثر وقد يصل إلى أربع مستويات:

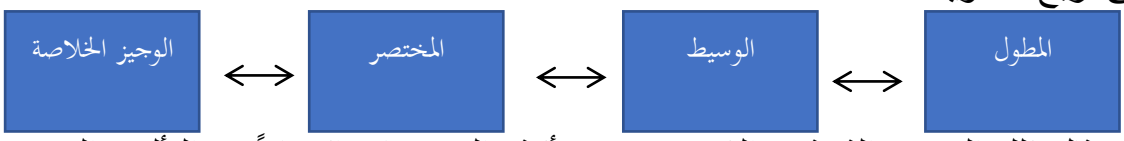

ومثال ذلك التدريج الثلاثي والذي يعتبر من أكثر المستويات اكتمالاً في التأليف العربي:

- كتاب النوادر للكسائي (ت 197هـ) الكبير – الأوسط – الأصغر.[4]

[1] عبد الكريم اليافي، مكانة ابن رشد في تاريخ المعرفة الإنسانية، المجلة العربية لبحوث التعليم العالي – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ع 1 يونيو 1984م، ص95-96.

[2] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي، 1965م، 248/1.

[3] شوقي ضيف: النقد ، ط4، القاهرة، دار المعارف 1979م، ص126.

[4] ابن النديم، الفهرست، ص65.

وقد ذكر الأستاذ محمد مصطفى في كتابه "تاريخ حياة المقريزي" أن المقريزي جعل نص المواعظ والاعتبار أساساً تفرعت عليه مؤلفاته التالية التأريخية في مراحل مختلفة للتأريخ المصري في العصور الوسطى، وقد أهتم في شرح كل منها ما أجمله والمؤلفات هي:-

1. البيان والأعراب فيمن دخل مصر من الأعراب
2. اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الخلفا.
3. السلوك لمعرفة دول الملوك.[1]

إن فكرة التأليف النصي المحوري تبدو جوهرية عندما نحاول النفاذ إلى أسرار ظاهرة التأليف النصي، وهي في المحصلة تنطوي في بعض جوانبها التأصيلية والتوثيقية على حرص مؤلف النص على تقديم شهادة نسب تثبت قوة سنده إلى أصل راسخ وهذه تأتي من خلال أهمية النص الأصلي يعنى "جلالة النص"، ومن ثم قيمة الإضافة الجديدة التي يضيفها النص الجديد، فقد تحدث السخاوي عن مؤلفاته حيث يقول: "وجمعت كتاباً حافلاً على حروف المعجم، "أصلته من تاريخ الإسلام الذهبي". وزدت عليه خلقاً أغفلهم أو تجددوا بعده"....[2]

المبحث الثاني : النص وسوسيولوجية الاتصال العلمي في الحضارة العربية الإسلامية

أولاً: النص – مضمونه – وأشكاله

1. النص مفهومه اصطلاحاً: يختلف معنى النص اصطلاحاً حسب المجال المعرفي الذي تتم فيه الدراسة، فعند أهل الحديث جاء بمعنى الإسناد، والتعين، والتحديد، فيقولون نصاً عليه في كذا، ونجده عند الفقهاء بمعنى الدليل الشرعي كالقرآن والسنة، كقولهم "لا أجتهاد مع النص " وعند الأصوليين يدل على ما لا يحتمل إلا ما معنى واحداً أو لا يحتمل.[3] يذكر الأستاذ محمد مفتاح في كتابه "تحليل الخطاب الشعري: التشابه والاختلاف" النص هو مدونة كلامية، وحدث تواصلي، وتفاعلي، وله بداية ونهاية، أي أنه مغلق كتابياً، لكنه توالدي معنوياً لأنه "متولد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية ... وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له. [4]
1. التعريف اللغوي للنص: يقول أبن منظور النص: رْفُعك الشَّيءَ نص الحديث ينُصَّه نصاً: رفعه. وكل ما أظهَر، فقد نَصَّ... وأصل النص أقصى الشيء وغايتُه.[5] وعند الزبيدي في تاج العروس "أصلُ النص: فعك للشيء وإظهاره فهو من الرفع والظهور ومنه المنصة... نص الشيء (ينصُه) نصاً: حركهُ.[6]

---

[1] محمد مصطفى زيادة: تاريخ حياة المقريزي في دراسات عن المقريزي، 1971م، ص19.

[2] السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية (د.ت) ص231.

[3] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004م، 926/2.

[4] محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، البيضاء، بيروت، ط3، 1992م، ص120.

[5] ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط3، 1414هـ، 98/7.

[6] الزبيدي، السيد محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس – القاهرة، المطبعة الخيرية، 1406هـ، 179/18. 179/18.

2. المفهوم البنيوي للنص: فيقول المسعودي في مروج الذهب أن أدق الكلمات التي استخدمت للدلالة على الرغبة في تثبيت النص لفظ "مبنى الكتاب". [1]فيمكن القول أن النص هو الكلمات أو العلاقات التي يستخدمها المؤلف بدلاً من الكلمات في عمل مخطوط أو مطبوع. فهو يحتاج إلى ضمانات توثيقية عن طريق تسجيله، ليتحقق له الاستمرار والبقاء في صورة محددة ثابتة، ويرتبط بالوظيفة التوثيقية القائمة أو المتوقعة للنص هو ذلك التصور الشائع بأن النص "هو كيان مغلق". [2]

وهذا المفهوم يكون أكثر أهمية والتصاقاً بالنص الديني المقدس. ويشير الأستاذ احمد بنبين إلى النص بكلمة "المتن" وهو صلب الكلام لتمييزه عن أي إضافات كالحواشي. [3]وقد يتوافر للنص من المقومات ما يجعله نواة لنصوص أخرى، وأول تلك النصوص هو "التفسير" وبذلك قد يصبح التفسير نصاً هو الآخر يحتاج إلى تفسير وهكذا، فكلما ازدادت أهمية النص ازدادت معه تفاسيره والأعمال المبنية عليه، وبذلك تبدأ في ثقافة ما، سلسلة من النصوص وعلاقات التأليف، وتشجير أو تفارع هذه العلاقات. ولكن بعض النصوص التراثية لا ترقى إلى مرتبة النص الفعال المعترف به، فهو بذلك يبعد من دوائر الاتصال التأليفي والتدريسي كقول الأستاذ عبد الفتاح كليطو في كتابه "الأدب والغرابة" مثل نجد – ألف ليلة وليلة – مدونة في عدة هيئات ولكننا لا نجد إشارة إلى شرحها أو تلخيصها مثلا حتى عصر قريب. [4] بينما نلاحظ على العكس منها "كليلة ودمنه" حظيت بالتعريف والإشارة إلى تأليفها وترجماتها، وكذلك حظيت بمؤلفات تابعة لها مثل التلخيص والتنظيم .... [5]

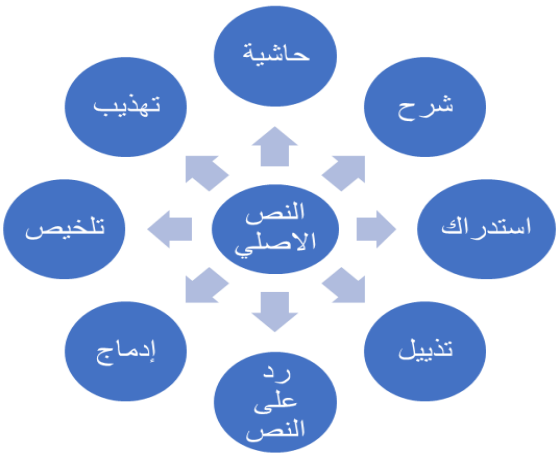

ولقد وضع استاذنا كمال عرفات بعض النقاط اعتبرها من العوامل التي تمنح بعض النصوص قدره على الاستمرارية والبقاء وتجاوز قوانين التغير، وهي:

1. قدسية النص.
2. مصداقية النص اذا كان إخبارياً باريا تاريخيا.
3. الوظيفة.
4. الدلالة والفكرة .

[1] المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ، تحقيق محمد محي الدين، بيروت، دار الفكر ، 1973م، ص409.

[2] كمال أبو ديب: الحداثة، السلطة، النص – فصول (القاهرة) مج4، ع 3، (ابريل – يونية) 1984م، ص49.

[3] احمد شوقي بنبين: معجم مصطلحات المخطوط العربي، ط2، الرباط، الخزانة الحسنية، 2004م، ص271.

[4] عبد الفتاح كليطو: الادب والغرابة ـ دراسة بنوية في الادب العربي، بيروت، دار الطليعة، 1982م، ص13-14.

[5] كشف الظنون، 1507/2.

5. القدرة على الالهام.
6. اصالة المنهج.

ولكن ظاهرة بقاء النصوص لا يقصد ببقاء النص وجوده المادي، وجوده المعنوي في دائرة الاتصال والقراءة وطبيعي ان تتفاوت لنصوص في فترات بقائها واستمرارها، بل اننا نجد بعضها يتنحى زمناً ثم يعود الى دائرة الأهمية لظروف معينة.

والنص الأصلي هو نص تؤلف بعده نصوص تابعة، ويمكن ان تطلق تسميات أخرى على النص مثل النص الأول، والنص المحرك، والنص الفاعل، والنص الأساس، والنص المحوري، وكلها صفات للنص الأصلي. ويذكر حاجي خليفة انه استخدم كلمة "المتن" للدلالة على النص او كتاب الأصلي الذي تؤلف عليه كتب أخرى تعتبر فروعاً له حيث يقول: وأوردت أيضاً أسماء الشروح والحواشي... مع التصريح بأنه شرح كتاب فلاني.. بناء على ان المتن أصل والفرع أولى أن يذكر عُقيب أصلهُ[1]. وشرح النص يعني هو كشف الغامض وتفسيره، وهو التوضيح والبيان.[2] وكذلك التوسيع والافساح، أو التعليق على مصنف يُدرس من وجهة نظر علوم مختلفة.[3] وتستخدم كلمة التفسير بمعنى البيان والكشف ايضاً وتستخدم لشرح القران الكريم. وعن أهمية الشروح واشكالها من التأليف الشارح يمكن ان نتعرف على نموذج "شوقي ضيف في الاستخدام المتكامل للنصوص" حيث روى الدكتور شوقي في القراءة والاستفادة من اشكال متعددة من الشروح فكان يقرأ النص "المتن" في علم من العلوم ثم يقرأ شرح المتن في الشرح ثم بعد ذلك يلجأ الى شرح ومناقشة الشرح في الحاشية ثم يجد شرحاً ومناقشة للحاشية في التقرير.

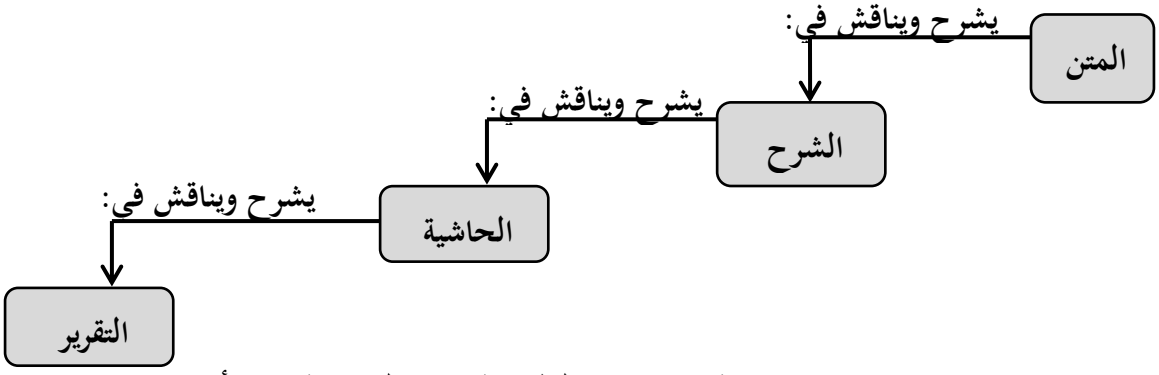

ورغم ما نجده من تعقيد ومشقة في هذه الطريقة من الدراسة فقد أشاد شوقي ضيف بالاستفادة من هذه المراحل الخصبة في التعامل مع النص من خلال جدليات ورؤى وافاق في الشرح والمناقشة خلال هذه المراحل المتسلسلة.

ثانياً: ملاحظات حول التأليف وسوسيولوجية الاتصال العلمي.

1. التمركز والمحورية: وهي تمحور عدد من المؤلفات على نص أصلي، بمعنى يمكن ان يكون نص واحد يصبح مركزاً تدور حوله مؤلفات جديدة في مستويات متعددة من التفارع. هناك بعض النقاط التي يطرحها المؤلف لتفسير ظاهرة التمركز وهي:

- اصله النص: وهي فكرة تأصيل النص يوصله بأصلٍ مرموق، وبذلك يحرص المؤلف على تقديم شهادة نسب تثبت قوة سنده واستناده الى اصل راسخ من النصوص السابقة،

[1] المرجع السابق، المقدمة الجزء الأول العمود الثاني.
[2] التهانوي، محمد الفاروقي: اكتشاف اصطلاحات الفنون 94/4 (مرجع سابق).
[3] فو، كارادي،"شرح " دائرة المعارف الإسلامية، 188/13.

حيث يذكر حاجي خليفة ان كتاب ما لا يسع الطبيب جهله لمؤلفة ابن كبير يقول: كتاب جليل المقدار، وجلالته "بجلالة اصله" وهو جامع مفردات الادوية ابن البيطار وخصوصاً بما زاد عليه. وفي حالة التأليف الاستشهادي لازال العلم يقدر مصادر المؤلف التي يستقي منها، ويصبح الامر اكثر أهمية إذ أستند الى نص اصلي له أهميته وخطورته، وهذا يأتي من خلال:

- أهمية النص الأصلي "جلالة النص".
- قيمة الإضافة أو الزيادة الجديدة التي يضيفها المؤلف للنص الجديد.

2. الكتب الأمهات: لكل علم من العلوم كتب تتمتع بأهمية بالغة، حيث كانت تتمتع بذلك لقرون عديدة، يعني يكون كتاب في القمة شامخ في محاله وهذا الكتاب يمكن ان يطلق عليه "الكتاب المسيطر"، حيث يذكر الأستاذ سليمان اسحق في كتابة "بحوث في التربية " أن الجامع الصحيح للبخاري ومؤلفاته التابعة التي أمكن حصر 94 مؤلفاً منها، والفية ابن مالك التي بلغت المؤلفات التي عملت عليها وذكرها حاجي خليفة 72 دراسة. ويذكر استاذنا الفاضل عبد الستار الحلوجي في كتابة "تراثنا الفقهي" أن وصف الكتب الأمهات هو أكثر ارتباطاً بالعلوم الحيوية في التراث الإسلامي كالدين واللغة فقد اعتبرت هذا النوع من الكتب اصولاً وأستمر تأليف الشروح والحواشي والتعليقات عليها.
3. طبيعة النظام المعرفي العربي والإسلامي: يعرفنا النظام المعرفي بطبيعة العلاقة بين مخطط علاقات التأليف وسوسيوجرام المعرفة الذي يتكون من علاقات العلوم والنظم المعرفية والحياة الفكرية، وعلاقة كل الدوائر الاجتماعية في العصور المختلفة فيمكن القول انها توضح العلاقة بين الأستاذ والطالب وعلاقة المؤلف بالنص، وعلاقة النص الأصلي بالواقع الاجتماعي، ومن الشواهد على ذلك كما يقول استاذنا كمال عرفات ان كتاب الفهرست لابن النديم الذي يرجح انه يلق ما يستحق من اهتمام في مجال التأليف النصي سواء بالاختصار او الاستدراك او بالتذييل، نظراً لعدم وجود تلاميذ لأبن النديم، لأنه لم يعمل بالتدريس.

وهذا يدل على اعتماد المؤرخين على ظواهر التأليف العربي والتأليف النص خاصة، وتتخذ ظاهرة الشروح والتعليقات والإضافات وغيرها الى كتب سابقة، والاشتغال بالنصوص القديمة، يعني الانتماء الى نظام معرفي وعقائدي مركب، التي يصف بها الدكتور حسين مؤنس حالة التأليف العربي في القرن السابع الهجري وما يليه، والتي جعلت الشيوخ يهتمون بالماضي وحده، حتى اجادوا في خدمته.

4. استثمار النص: هو استثمار النص السابق، بعمل قد تضاف فيه قيم جديدة إلى قيم قديمة في بعض الأحوال، وهذه النصوص تتميز بخصوبة فائقة، وقدرة متصلة على العطاء، والجاذبية، فمؤلف الكتاب الإسلامي مثلاً نادراً ما كان يعبر عن نفسه كشخص، فهو عادة ما يهتم بالرواية عن الآخرين ويصل من ذلك الى أن الكتاب الإسلامي بحد ذاته يمثل تراثاً شفهياً غير مقطوع ويصطبغ بالعلاقات بين أهل العلم.

الخاتمة:

1. الدراسة توضح العلاقة بين النصوص التراثية واتصالها العلمي بنصوص لها علاقات ببليوغرافية او معلوماتية.

2. استمرار التأثير للنص الأصلي بظهور المؤلفات المتفارعة عليه، وقد بلغ تأثير بعض النصوص الى ثمانية قرون، فقد حظى الفية ابن مالك بنحو اثنين وسبعين مؤلفاً وصحيح البخاري نحو اربعة وتسعين مؤلفاً... وغيرها.
3. أهمية النص في الحضارة سواء كان مروياً او مكتوباً، وتبدو ان الحضارة العربية – الإسلامية حضارة كتاب، بدأت عبقريتها بالمثل الأعلى في التنسيق الديني وهو نص القران الكريم والذي كان المحرك الأصلي لكل هذه الفعاليات في التأليف.
4. ادراك قيمة النص في التجربة الإنسانية، فهو مخزن القيم المعرفية والأخلاقية، وذاكرة الحضارة، وركيزة التوازن العقلي والنفسي والاجتماعي، فالنص يعتبر ثابت والفهم متحرك.
5. أكدت الدراسة الحالية دعماً لدراسة استاذنا كمال عرفات حول "العلاقة بين النصوص " والتي امكن تحديد نحو ستين نوعا من التأليف النصي، وتحديد خصائص كل نوع، وطبيعة الجهد العلمي في تأليفه، ووظائفه الاتصالية العلمية، وعلاقاته مع الأنواع الأخرى من التأليف النصي.
6. ظهور النص الأصلي وما تفرعت عنه الكثير من المؤلفات مما اكسبه قيمه عليا نال مصطلحات مثل: المحورية والتمركز، والكتاب الام، والكتاب المسيطر، والنصوص الجاذبة القوية، والنص الفوقي.

المصادر:

1. احمد شوقي بنبين: معجم مصطلحات المخطوط العربي، ط2، الرباط، الخزانة الحسية، 2004م.
2. ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، تحقيق جوستان فلوجل، ليبتزج 1871.
3. ابن منظور، جمال الدين محمد مكرم المصري: لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1968م.
4. بطرس البستاني: محيط المحيط، بيروت، مكتبة لبنان 1977م.
5. التهانوي، محمد علي الفاروقي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، 1977م.
6. الجرجاني، علي بن محمد بن علي: التعريفات – بيروت، دار الكتب العلمية، 1983م.
7. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد الغفور، دار الكتاب العربي، 1377هـ.
8. حسين مؤنس: الفكر العربي يدخل العصر الحجري، مجلة أكتوبر (القاهرة) ع 399، يونية، 1984م.
9. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف الدين، إسطنبول، وكالة المعارف، 1941م.
10. سليمان أسحق محمد عطية: بحوث في التربية من كشف الظنون، القاهرة، مكتبة الانجلو، 1977م.
11. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، مطبعة عيسى الحلبي، 1965م.

12. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية (د.ت).
13. الزبيدي، السيد محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، القاهرة، المطبعة الخيرية، 1406.
14. شوقي ضيف: معي، القاهرة، دار المعارف 1981م
15. شوقي ضيف: النقد، القاهرة، دار المعارف، ط4، 1979م.
16. عبد الكريم اليافي: مكانة ابن رشد في تاريخ المعرفة الإنسانية المجلة العربية بحوث التعليم العالي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ع1، يونيو، 1984م.
17. عبد الفتاح كليطو: الادب والغرابة، دراسة بنوية في الادب العربي، بيروت، دار الطليعة، 1982م.
18. القنوجي، صديق بن حسن: ابجد العلوم، أعده ووضع فهارسه عبد الجبار زكار، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1978م.
19. كمال عرفات نبهان :عبقرية التأليف العربي، منشورات مركز دراسات المعلومات والنصوص العربية، 2007م.
20. كمال أبو ديب: الحداثة، السلطة، النص – فصول، (القاهرة) مج 4، ع 3 (ابريل – يونية) 1984م.
21. الفيروزابادي: القاموس المحيط، المكتبة التجارية، القاهرة، ط5، 1954م.
22. محمد مصطفى زيادة: تاريخ حياة المقريزي، دراسات عن المقربزي - مجموعة دراسات، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971م.
23. محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، بيروت – استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992م.
24. المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ، تحقيق محمد محي الدين، بيروت، دار الفكر، 1973م.
25. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، نشر مرجليوث، ط2، القاهرة، دار المأمون، 1938م.

Textual composition and the sociology of scientific communication in Arab-Islamic civilization

Prof. Assist. Qasim Laibi Musa
College of Engineering / Al-Mustansiriyah University
Kasim – la@yahoo.com

Abstract:

represents the comprehensive text and the major phenomenon in the axis of Arabic authorship, and it is the center of gravity in this study, and it teaches the most important types of relationships between texts. The powerful texts that attract writing about them are subordinate texts that are originally very powerful works, as they have absorbed the works that came before them, whether explanation, summary, or refinement. The more important the text becomes, the more its interpretations and works based on it increase. The centrality and focus of an original text thus becomes a center around which new works revolve. New values are added to old values, and these texts are characterized by a very attractive fertility.

Keywords: Original text - Authorship - Textual authorship - Relationship between texts.